مفهوم [الإنسانيه]
عند "العرب" !

١- الميزان .

إن لكل أمة من الأمم باباً من أبواب الحياة تميزت به وأبدعت فيه وفاقت غيرها ، والبشر بعضهم يكمل بعضاً والأحمق هو الذي يبدأ من حيث بدأ الناس لا من حيث انتهوا ، وهذا التميز عند كل أمة يكون منشأه موافقة هذا الباب لطبائع هذه الأمم وأمزجتها التي جبلت عليها وخصائصها الثابتة التي لا يغيرها تقلب الأحوال ولا تبدل الأفكار لكونها مركوزة في أعماق النفس البشرية والعرب تقول [العرق دساس] ! ①

ومن هنا فإننا نجد هذا التميز عند كل أمة في بابها الذي برعت به يمتد عبر تاريخها الطويل وليس هو بوليد اللحظة ، فإذا نظرت إلى أمة الصين مثلاً فإنك تجدهم قد تميزوا في مجال الصناعات من قديم الدهر : ابتداءً بـ «هدهد ذو الجناحين» ومروراً بـ «سور الصين العظيم» وانتهاءً بسيطرتهم على «السوق العالمية» اليوم .

والمقصود أننا إذا جئنا إلى [الأبواب الإنسانية] - الثقافة والأدب - والتي تقوم على فهم النفس البشرية فهماً عميقاً والعمل على الارتقاء بها إلى أعلى درجات الكمال في جميع جوانبها البشرية المختلفة فنشهد هذا الميدان هو مجال إبداع العرب الذي لا ينافسهم فيه أحد ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] فأخبر أنه فاقهم في مجالهم الذي برعوا فيه «الإنسانية» [قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار ، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد ؟ ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعث في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبهه كلام الخلق أبداً] «تفسير ابن كثير : ٦٦/٣» .

وذلك أن الإنسان لما كان عبارة عن «قلب» و«عقل» يفكر بأحدهما ويشعر بالآخر وكان «الإنسان الشرقي» بطبعه مرهف الحس جياش المشاعر قوي العاطفة وكان «الإنسان الغربي» بطبعه كبير العقل وقاد الذهن قادر على الابتكار والإبداع وكانت أرض العرب بين المشرق والمغرب جمع أهلها بين محاسن هذا وذاك فكانوا أكمل الناس «إنسانية» ! ، ثم إنهم بعد ذلك عاشوا في صحراء خالية لا يرون

① أنظر في هذا الباب كتاب [السنن النفسية لتطور الأمم] لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر .

فيها غير [الإنسان] و القليل معه فلا زروع ولا أنهار ولا بناء ولا صناعة فليس في أرضهم ما يلهي عن الإنسان وتأمله و الكشف عن أسرار نفسه وخباياها و الإرتقاء بها إلى أعلى درجات الكمال الإنساني ①

، وهذه هي حقيقة "الشعر" عندهم: أنه القدرة على الإبانة عن النفس البشرية و حسن العبارة عنها والتأثير فيها بأبلغ صورة. قال ابن رشيق [إنما سمي الشاعر شاعرًا: لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره] "العمدة".

وقد بين الإمام الشاطبي رحمه الله فضل العرب في هذا الباب و تفوقهم فيه على غيرهم من الأمم بقوله [الملكات - الأفهام وأساليب التعبير - الحاصلة للعرب أحسن الملكات و أوضحها دلالة على المقاصد]

ومن هنا كانت اللغة العربية هي اللغة الكاملة للتعبير الإنساني الفطري فهي لغة الإنسان المتوازن القريب من الكون و مخلوقاته البعيد عن تعقيدات المادة. لذا كانت لغة واسعة بسعة "نفسه" و "عقله" فلا غرابة في أن تكون هي لغة آدم عليه السلام أبو البشر و لغة أهل الجنة فإن اللغة ليست مجرد ألفاظ تخرج من طرف اللسان وإنما هي أداة الإنسان الأولى في التعبير عن نفسه فهي [ثقافة] و [فكر] و [منهج] ومن هنا قال العلماء في قوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أن الله أعطى آدم سر الاهتداء إلى حقائق الأشياء والغوص في أسرارها ومعرفة أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية وحسن الإبانة عن ذلك كله! ، وفي دراسة حديثة خرجت في خمسينات القرن الماضي عرفت بإسم [سابير وورف - sapir-whorf] توصل أصحابها إلى ② أن اللغة [ليست مجرد] أداة للتعبير عن "الأفكار" و "المشاعر" - ألفاظ - وإنما هي صانعة لها! وقد انتصر لهذه الدراسة عالم اللغة الشهير "غاي دويتشر" في كتابه [عبر زجاج اللغة - through the language glass]

، وبهذا تعلم أن كل كلام قيل في فضل العرب لغتها وأشعارها لم يرد به مجرد الألفاظ وتزويقها وإنما الغوص في أعماق النفس البشرية وحسن الإبانة عنها وقد بلغ العرب في ذلك غايته فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [إن من البيان لسحرًا] لكشفه عن مكنونات النفوس وشدة تأثيره عليها ، بل إن العرب لشدة عنايتهم بهذا الباب وإشتغالهم به وانقطاعهم له لم تظهر فيهم الفنون التي ظهرت في الأمم الأخرى من رسم ونحت وتمثيل بل ولا حتى المبالغة في الموسيقى والتنغيم لأن همهم الأول كان منصبًا على "الكلمة" التي هي أداة الإنسان الأول في التعبير عن نفسه.

ومن هنا كان من الإجرام الذي نراه في زماننا في حق الإنسانية: حمل قضايا الجنايات إلى قاعات المحاكم وطرحها بمهارات القضاة والحقوقيين فإن ذلك يجردها من إنسانيتها ويلغي جمالها في القلوب لتتحول إلى مجرد "مسألة قانونية" لا علاقة لها بالنفس البشرية ، وكذلك من يعلى هذه الأبواب النظر إليها

① أنظر في هذا الباب "المجلس السادس" من كتاب [الإمتاع والمؤانسة] لأبي حيان التوحيدي فقد أفرده للحديث عن فضل العرب وعلو كعبهم في هذه الأبواب الإنسانية وذكر لكل أمة ما يميزها من أبواب الحياة الأخرى.

② أنظر في هذه "المناقشة" كتاب شرح القصيدة الروحية لأبي ميلان محمد رشيد [...] و "الشمال في اللغة" [...]

⑤ يقول الأستاذ سلطان مهيوب الكامل [كنت أخبرتك؛ أن العربية تزيد من المروءة والأخلاق والرجولة، واليوم أخبرك؛ أن البيان يحفظ لك صحتك النفسية ويبعدك من ضيق الصدر! التمس هذا بالتجربة وبالإيماء الإشاري في قوله تعالى على لسان موسى ﴿ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ فمحبوس اللسان حاد الطبع سريع الغضب بادرته نارية] ، فاللغة ليست مجرد أداة تواصل فقط وإلا لكنا مثل البهائم والطيور! [redacted] وإنما هي هوية وثقافة ولذلك تنص كل الدول على لغتها القومية في دساتيرها.

بنظرة "دينية" محضة تلغي بشرية الإنسان وترفعه في صوره ملائكية خيالية لا وجود لها في دنيا الناس إلا بالكذب والتصنع وهي صورة قبيحة ليست من الكمال البشري في شيء*، ومن الإنحرافات كذلك: حمل هذه الأبواب على أنواع التشريح والنظر إليها بنظرة طبية ووضع التقسيمات "الفنية" و"التشريحية" لها كما هو منتشر اليوم فإن فتنة الناس في زماننا بالطب كفتنتهم بالسحر قديماً حيث روّجوه بمختلف مجالات الحياة وجعلوه "التفسير المنطقي" لجميع ما حولهم، يقول الأستاذ أبو قيس محمد رشيد ["الذكاء الاجتماعي" و "الحس اللغوي" و "الحس الأدبي" شيء و"العلوم الأخرى" شيء آخر وليست هي "الإنسانية"، إذ هي علوم محصلة من خارج النفس البشرية أما العلوم الإنسانية فهي النفسانية اللسانية إذ هي التي ترتقي بالإنسان، ولذلك قد ترى مهندساً أو طبيباً جلف الطبع غليظ القلب لا إنسانية له بينما لا تجد شاعراً أو أديباً كذلك، إذ القضية الإنسانية والعقل الإنساني والتركيب النفسي للإنسان أمر مختلف تماماً عن هذه "العلوم"]* ومن صناقات العرب (مفتاح الإنسان "كلمه") في إشارة إلى أن اللغة والأدب هي بوابة الولوج إلى النفس البشرية وما عداها مجرد نوافذ صغيرة !.
والمقصود أن كل هذه الموازين الـ"لا إنسانية" إنما تستعمل في أبوابها ولا مدخل لها في "الأبواب الإنسانية" إلا على سبيل التبعية فلا تهدر بالكلية ولا تجعل هي الأصل والميزان والناس في ذلك بين إفراط وتفريط والعاقل هو الذي يعطي كل شيء حقه فإن [الحكمة: هي وضع الشيء في مواضعه] "منازل السائرين". فإذا فهمت ما سبق علمت أنه من الحماقة أن يتكلم المرء في هذه الأبواب دون الرجوع إلى تراث العرب المتراكم في كلامها وأشعارها وأمثالها وأخبارها فيصدر عنه ويبني عليه ما يعالج به مشكلات عصره فيكون قد بدأ من حيث انتهى الناس قبله ، وتخبط الناس اليوم في هذه الأبواب وتشريقهم فيها أو تغريبهم وإتيانهم بالعجائب إنما هو لفقدهم الضابط فيه وتضييعهم للميزان الذي به توزن قضاياه وتحل مشكلاته ولذلك تجد كلامهم فيه لا أصل له يبنى عليه وإنما هي خواطر سانحة وأفكار مشوشة لم تختبر وما تلبث غالباً إلا سنوات قليلة ثم تستبدل بغيرها حين يثبت فشلها وهكذا وكأن الإنسان جديد على هذا الكون وجزء مجهول منه لم يكتشف بعد ومشاكله لم تكن موجودة عبر تاريخه الطويل ! فحينئذ لا تعجب مما وصل إليه الناس من جهل وضياع في هذه الأبواب.

وفي الختام فليعلم أن أعظم ما يقيد الإنسان ويحجب عقله ويفوت عليه كل خير هو "الغرور"؛ الغرور بنفسه وبزمانه وأفكاره وبالمعظمين عنده وبما يراه من تطور في الصناعة وفي بعض العلوم التي أوهمته بأن الإنسان اليوم ليس هو الإنسان بالأمس وأنه لما امتلك الهواتف والسيارات والطائرات استطاع أن يصل إلى درجة من "الكمال الإنساني" لم يسبق إليها ولا أدري ما علاقة هذه "الاختراعات" بـ"النفس البشرية"

① ومن اللطائف في هذا الباب أن حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتحمل رؤية الدم بغير جبن لرقة طبعه ولم يضرب بالسيف في حياته قط وله في ذلك قصة طريفة مع صفية عمة النبي حين خبأ رسول الله النساء والأطفال عنده في حصنه في أيام أحد.

* ولذلك قال القاضي الجرجاني الشافعي [الدين بمعزل عن الشعر] "الوساطة بين المتنبي وخصومه" ②

② ومن طريف ما يذكر في هذا الباب المحاورة التي جرت بين الشاعر عيضة بن طوير و محمد بن جوقان قال فيها ابن طوير :

من العام أنا وأولاد عمي تفصلنا لبوس — يا مطيب الزهه ويا محسن الثوب الجديد

لكن تجدانا "الهلوع" بتفصيل الثياب — وليلة الزهة تغير مطوعنا الكبير

مرى بدت الزير وأنا بغيت أرقص معه

ثم أجابه ابن جوقان :

قل "الهلوع" وانتبه للقصايد والهجوس — الله خلقنا ننظم الشعر وأبيات القصيد

الله يعينك يا ابن طوير في يوم الحساب — يا ما لقي من ولونا يتشدده على ابن طوير

بيجعله جاره وساكن معه في شاربه

ثم أشار إلى الفصل بين الميزان الإنساني و الشرعي الشرعي وسياتي مزيد بيان لذلك.

① يقول الأستاذ العقاد ["المتنبي" يمثل العقل العربي العملي، و "المعري" يمثل العقل العربي الفلسفي، و "البحتري" يمثل العقل العربي الفني؛ وهؤلاء الثلاثة يمثلون العقل العربي خير تمثيل] .

✱ ولذلك قال تعالى في خلق الإنسان علمه البيان؛ ففرق بين "إنسانية" وبين "بيانه"!.

والاستهزاء بها ؟! ولكنه الغرور داء البشرية القاتل لعقولها في جميع العصور وإستبداد الصغار بأنفسهم وجهلهم وسوء ظنهم بآبائهم الأوائل الذين نعيش اليوم على أنقاض ما بنوه من حضارات إنسانية عظيمة شغلت التاريخ بأمجادها وملأت له سمعه وبصره ، والعجيب أن الناس اليوم لو قام لهم حاكم ونادى فيهم أن يلقوا وراء ظهورهم جميع ما توصلت له البشرية في مجال الطب ويبدأوا منه من أوله لكان أضحوكة الدنيا ولعدوا كلامه هذا ضرباً من الجنون! ثم هم يفعلون ذلك في غيره من العلوم .

٢- الإنسان والدين.

خلق الله السماوات والأرض وجعل سكان السماء هم "الملائكة" وعلى الأرض "البشر" وتحتها "الشياطين"، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة أصناف خلقته التي تميزه والتي هي مراد الله منه، ومحاولة تغيير الفطرة لأي صنف من هذه الأصناف فضلاً عن كونها مجرد مغالطة ذهنية لا تحقق لها في الواقع إذ لا تبديل لخلق الله إلا أنها كذلك فكرة إبليسية - حتى وإن ظهرت بمظهر التدين - حين قال إبليس متوعداً بني آدم ﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾.

ومنشأ الخلل عند الناس في هذا الباب هو: جهلهم بقدر الإنسان الذي قال الله فيه ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فبين أن خلقة الإنسان هي الأحسن وفطرته هي الأكمل!، إذ الملائكة مخلوقات "عقلانية" ليس لها رغبات ومشاعر شخصية واختيارات ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ - وذلك نقص في كمال الحياة -، والشياطين مخلوقات "شهوانية" لا حكمة لها ولا نبل - وهذا أيضاً نقص -، أما الإنسان فقد جمع بين الأمرين فله "قلب" و"عقل" يفكر بأحدهما ويشعر بالآخر وأعلى درجات الكمال الإنساني هو أن يأتي بكل واحد منهما تاماً دون أن يغالي بأحدهما الآخر فلا يطغى بعقله شهوته ولا يدعها تحجب عقله، وكل تغليب لأحد الأمرين على الآخر هو في حقيقته تجريد للإنسان عن إنسانيته وتشويه لفطرته ومسخه إلى "نسناس" والعرب تأنف من ذلك وتنفر منه وليس عندها من الكمال البشري في شيء(1)، وإنما أدخل هذا التصور الفاسد للتدين العجم حتى غلب فصار أكثر الناس لا يعرفون غيره - إلا بقايا من الأعراب على فطرتهم الأولى -*، إذ أن وضع الإنسان في صورة ملائكية إنما هي فكرة فلسفية هندية وثنية لا تزال إلى يوم الناس هذا تستعبد صورها فيهم عند أهل الشرق - ومن أشهر أمثلتها في زماننا رياضة اليوغا - وهي جرم في حق الإنسان والإنسانية مهما زوقها أصحابها وقلبوا لها الأمور، وأما شيطنة الإنسان ورغباته وشهواته فهي فكرة خارجية بامتياز! قال المبرد في "الكامل" [يروى من غير وجه أن ابن الأزرق - أحد رؤوس الخوارج - أتى ابن عباس رضي الله عنه يوماً فجعل يسأله حتى أمله فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام فسلم وجلس فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا شيئاً من شعرك؟ فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتمها وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه؟ فقال ابن عباس: تالله ما سمعت سفهاً!] وقد قال ابن عباس رضي الله عنه [ذهب الناس وبقي النسناس] قيل: وما النسناس؟ قال: الذين يتشبهون بالناس

* وفي الحديث [إياكم ورطانة العجم].

(1) ومن هنا قال أبو فراس الحمداني يمدح نفسه:

وأجري فلا أعطي الهوى فضل مقودي ... وأهفو ولا يخفى علي صوابي

وليسوا بالناس؟] قال القزويني [إنهم أمة من الأمم لكل واحد منهم نصف بدن ونصف رأس ويد ورجل كأنه إنسان شق نصفين، يقفز على رجل واحدة قفزاً شديداً ويعدو عدواً شديداً منكراً] وقال الميداني في "الأمثال" [إن الناس كانوا يأكلون النسناس وهم قوم لكل واحد منهم يد ورجل ونصف رأس ونصف بدن وليس لهم عقول والعرب يصطادونهم ويأكلونهم، وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون ويتسمون بأسماء العرب ويقولون الأشعار] ومن طريف أخبارهم ما رواه الدينوري في "المجالسة" عن أبي إسحاق قال [النسناس خلق باليمن لأحدهم يد ويد ورجل يقفز بها وأهل اليمن يصطادونهم، فخرج قوم لصيدهم فرأوا ثلاثة منهم فأدركوا واحداً فعقروه وتوارى إثنان في الشجر، فذبحوا الذي عقر فقال أحدهم -الصيادين- لصاحبه: إنه لسمين! فقال أحد الإثنين -النسناسين-: "إنه كان يأكل الضرو" فأخذوه فذبحوه، فقال الذي ذبحه: ما أنفع الصمت! فقال الثالث: "فأنا الصميت" فأخذوه فذبحوه] ولهم أخبار وأشعار عجيبة والعرب تضرب بهم المثل على ضعف الإنسانية.

والمقصود أن الإنسان ليس "ملاكاً" كما يريد الخرافيين الشرقيين ومن تأثر بهم من رجال الدين ولا "شيطاناً" كما يصوره الخوارج والماديين الغربيين وإنما هو "إنسان" كما خلقه رب العالمين!، وكل إنحراف يقع في هذا الباب مهما تنوعت الصور لا يخرج عن هاذين المنهجين:-

١- الخرافيين الذين يغالون في التدين حتى يضيعوا الإنسان،

٢- الماديين الذين يغالون في مادياتهم حتى يضيعوا الإنسان.

وكلاهما يرتكب نفس الخطأ في حق الإنسانية وإن إختلفت الصور في الظاهر! ومن ذلك قلت في قصيدة لي أمدح بها أحد الأصدقاء:

فاق الأنام بعقل ظن جاهله ... به الجنون، وهذا الداء أعياني

داء الجهالة داء الناس أجمعهم ... من كل "شيخ" تراه أو كل "علماني"

والذي نقوله هو أن الدين جزء من الحياة وليس هو الحياة كلها!، وتضخيم هذا الجزء وإخراجه عن حده حتى يطغى على باقي الأجزاء فيضعفها أو ليغطيها هو جهل بالحياة وسننها وبالإنسان وطبيعته بل وبالدين نفسه، وكذلك تحجيم هذا الجزء وتهميشه جهل بالإنسان وإحتياجاته وبالحياة وضروراتها وبالدين وعمقه وعظمته.

فالدين لا يلغي إنسانية الإنسان والإنسانية لا تقوم مقام الدين بل الإنسان مكون من كلا الأمرين ولا غنى له عن أحدهما ومن هنا لم يكن من مقصود الشريعة عدم وجود الخطأ في الناس مطلقاً كما يتوهمه البعض وإنما تعنى الشريعة بحفظ النظام العام وجعل السمة الإسلامية فيه هي الظاهرة مع بقاء إنسانية الفرد في نفسه ورغباته البشرية وإحتياجاته ولذا جاء في الحديث [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم] رواه مسلم، ولذلك لما إختلت هذه الصورة عند حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه وجاء

* وفي الحديث [فتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً! فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك! فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك] رواه البخاري، وهذا الحديث من أحب الأحاديث إلى قلبي لما فيه من بيان كمال إنسانيته عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى ﴿ وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾ وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم الدرس الذي إنتهى من ألم الحزن في الهيئة كما في صحيح مسلم مراعاة لحاله الإنساني.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو قال [فانطلقت أنا وأبو بكر الصديق حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال عليه الصلاة والسلام: وما ذاك؟! قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة! - ثلاث مرات -] رواه مسلم فبين له أن هذا المفهوم الخاطئ في التدين يخرجكم عن كونكم بشراً ويجعلكم في مصاف الملائكة وليس ذلك مراداً لله منكم أو لاصطفاكم ملائكة وإنما مراده أن يكون الدين جزء من حياتكم لا حياتكم كلها وباقي الأجزاء لإنسانيتكم ولاحتياجاتكم الاجتماعية ورغباتكم الشخصية فالفرق بين "الأوامر الشرعية" وبين "مراد الله" من الناس كالفرق بين التنظير والتطبيق في جميع أبواب الحياة فلا تؤخذ بمثاليتها الخيالية وإنما توضع في سياقها الإنساني الصحيح وتحمل عليه ومن هنا تكلم العلماء عن "موافقة العقل للنقل" ومن هنا جاء الكلام عن "الموانع الإنسانية" لإعمال الأحكام الشرعية كالغضب والجهل والخوف والمرض وغيرها *

فتكلف التنسك والمبالغة فيه حتى يخرج عن حد الإنسانية محاسبة النفس وتحقير شأن الإنسان بحجة الذنوب والأخطاء وممارسة جلد الذات عليه والوسواس القهري في بدعة أحدثها العجم ولم يعرفها أصحاب رسول الله ولا كبار التابعين ومن قرأ في كتب التراجم والسير يرى ذلك جلياً ويجد أنه كلما تأخر الزمان إزداد الناس عجمة في فهومهم وأعمالهم وقد لمس من شاء بعده من الصحابة التغير الذي حدث عند الناس في مفهوم التدين وتكلفهم في ذلك! نسل العجم فقال عبد الله بن مسعود [من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً] "جامع بيان العلم وفضله" وعن الزهري قال [دخلت على أنس بن مالك رضي الله عنه بدمشق وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت] رواه البخاري، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال [لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متماوتين وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ويذكرون أمر جاهليتهم] "الأدب المفرد" وعند ابن حبان [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس وكانوا يجلسون فيتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم صلى الله عليه وسلم] وكان واجهم ربما إضطجع على ظهره في المسجد من شدة الملل؟ ولما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يتخشع في المسجد ضربه بالدرة وقال: قتلتنا قتلك الله!* وفي أخبار الظراف" لابن الجوزي عن سفيان بن عيينة قال [أتينا مرة مسعر بن كدام فوجدناه يصلي فأطال الصلاة جداً ثم إلتفت إلينا متبسماً فأنشدنا:

ألا تلك عزة قد أقبلت   وترفع نحوي طرفاً غضيضاً

تقول مرضنا فما عدتنا   وكيف يعود مريض مريضاً

فقلت: رحمك الله بعد هذه الصلاة هذا؟! قال: نعم مرة هكذا ومرة هكذا!!] قال الأستاذ

* وفي "المصنف" لابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنه قال [ربما قال لي عمر بن الخطاب: تعال معي أباقيك في الماء أينا أطول نفساً؟ ونحن محرمون].

أبو قيس محمد رشيد [الغزل مركوز في الفطرة، وإنكار هذه الجبلة وأن نعتقد هذا لا ينبغي أن يتحدث به إلا مع الزوجة وقصره هذا القصر يؤدي إلى كبت عند الناس وسيحدث انفجار عند الإنسان بطريقته ما إلا في حالات نادرة بأن يميت الإنسان نفسه فلا يصير إنساناً ولا يشعر بشيء، وهذا موات أكثر من أي موات] فتغليب الدين على هذه الجوانب الإنسانية حتى يميتها جريمة في حق الإنسان وظلم للدين نفسه إذ العشق وحب الجمال والتغزل فيه حاجة إنسانية بل لا يكون الإنسان إنساناً إلا بها ولذلك إذا لم يعشق المرء بنفسه فلا غنى له عن مطالعة العشاق و [redacted] سماع أخبارهم و أشعارهم والنظر في أحوالهم حتى يكمل نفسه بذلك، كما قال [redacted] الشافعي رضي الله عنه [تعلموا الشعر فإنه يرقق الطبع ويعلم المروءة] فالإنسان بلا عشق ولا غزل يكون ناقص الإنسانية [redacted] جلف الطباع يمنعه قبح نفسه من إبصار الجمال في كل شيء، ولذلك قالوا:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فخذ علفاً تبناً فأنت حمار!

ولما كان الأنبياء أكمل الخلق إنسانية وأجملهم أرواحاً كانوا أقدر الناس على إبصار الجمال وحبه والتعلق به فهذا أبو البشر آدم عليه السلام [redacted] بعدما قتل ابنه ورأى كآبة حواء وحزنها على ابنها قال يتغزل بها ويواسيها:

تغيرت البلاد ومن عليها ... ولون الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح

فكان ذلك أول شعر قالته البشرية!، وقال الزهري [أول حب كان في الإسلام هو النبي لعائشة] وكان مسروق يسميها "حبيبة رسول الله" [redacted] وحين سئلت أم سلمة هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل وهو صائم؟ قالت: إن النبي كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها!، وقد عشق [redacted] رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش حينما نظر إليها أول مرة ورأى حسنها فقال [سبحان مقلب القلوب!] وكانت عند زيد بن حارثة فلما طلقها زيد زوجه الله إياها وكان جل في علاه هو وليها وولي تزويجها من فوق ٧ ثم فقام رسول الله من فوره فدخل عليها ①، حتى قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها غيرة عليه [ما أرى ربك إلا يسارع في هواك!؟]، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يزور هاجر في كل يوم من الشام إلى مكة على البراق من شغفه بها وتعلقه مسيرة شهر كما في "إعتلال القلوب: ٣١١"، فانظر إلى فرح الرب بموافقة عبده لمراده حين خلقه إنساناً وأراده أن يكون كذلك: فزوج نبينا من فوق سبع سماوات، وسخر البراق لإبراهيم! لأنهما عليهما السلام استكملا إنسانيتهما على أكمل وجه كما قال ابن القيم [وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله] "الداء والدواء: ٥٥٢"، وقد مدح الله إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي كمل في كل جانب

① وقد كانت رضي الله عنها تفخر على النساء بذلك وتقول: أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات!.

حتى أنه جاء في الأثر أن إبراهيم عليه الإنسان والجمال السلام كان أول من فرق شعره - المرضة! - وقص شاربه وإستمتعن بالنار وإختتن - نظافة شخصية! - فقال الله فيه ﴿ وإذ إبتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ فهو إمام الإنسانية! و قيل ليحيى بن معاذ الرازي إن إبنك عشق فلانة! فقال: [الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي] "الداء والدواء: ٥٠٨" وقد قيل [من لم تبتهج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي فهو فاسد المزاج محتاج إلى علاج] حتى يكمل إنسانيته! إن [العشق يشجع الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخي كف البخيل، ويذل عز الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس من لا أنيس له، وجليس من لا جليس له، والعشق يزيل الأثقال ويلطف الروح، ويصفي كدر القلب، ويوجب الإرتياح لأفعال الكرام كما قال القائل:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم ... إذا غاله من حادث الحب غائله

كريم يميت السر حتى كأنه ... إذا إستفهموه عن حديثك جاهله

يود بأن يمسي سقيماً لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

ويهتز للمعروف في طلب العلى ... لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق!] الداء والدواء: ٥٠٩.

ومن هنا كان أقرب الأقوال عندي إلى الصحة في قوله تعالى في قصة سيدنا يوسف عليه السلام وزليخة ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ هو ما قاله إبن عباس رضي الله عنه ووافقه عليه جمهور السلف الذين كانوا على الفطرة الأولى فطرة العرب - خلافاً للتأخرين - من أنها إستلقت له على ظهرها فجلس بين رجليها وحل سراويله! إذ إن هذا القول هو الأقرب لإنسانيته عليه السلام والأكمل لرجولته فإن الأعراب إلى يوم الناس هذا يعدون من يرى إمرأة حسناء متزينة وهو يحبها وتحبه ثم لا يحرك فيه ذلك شيئاً أنه ناقص الرجولة ميت القلب ثقيل الروح يقول إيليا أبو ماضي:

إذا أنت أبصرت الجمال ولم تهم ... كنت إمرأً خشن الطباع بليدا

وحاشى نبي الله يوسف وسائر الأنبياء من هذه النقيصة التي لا يرتضيها أحدنا لنفسه! ثم ما هي الفضيلة في كفه عنها إذ لم يكن به كلف بها؟ كما قال القائل:-

أخلو به فأعف عنه تكرماً ... خوف الديانة لست من عشاقه

كالماء في يد صائم يلتذه ... ظمأً فيصبر عن لذيذ مذاقه

ولذلك كان قول إبن عباس أقرب إلى الفطرة وأصح في العقل وقد ذكر الله ذلك عن يوسف عليه السلام على سبيل المدح وبيان كماله رجولته وإنسانيته وجمال روحه وكمال حياتها حيث عشق زليخة وعشقته فإن [النفس الحسنة تولع بكل حسن] "طوق الحمامة: ١٤٨" وقد كانت زليخة امرأة شريفة

كما قاله نفيفة غاية في الحسن تزوجها عزيز مصر وهي صغيرة وإنما حملها على فعل ما فعلت حبها ليوسف وعلمها بمكانها منه وما يكنه في قلبه من حبها جعله يتزوجها بعد ذلك فوجدها عذراء لأن زوجها كان عجوزا هرما لا طاقة له على النساء،

والمقصود أن [العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان إن تركته ضرك وإن أكثرت منه قتلك] "البصائر والذخائر"، فلا غنى للإنسان عنه سواء بأن يعشق هو بنفسه أو بأن ينظر في أحوال العشاق فيعتبر بها ويهذب بها نفسه ويعطي هذا الجزء من إنسانيته حاجته ولذلك قال الأديب إسحاق بن إبراهيم الموصلي [أرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم رقيقة خفيفة نزهتهم المؤانسة وكلامهم يحيي موات القلوب ويزيد في العقول ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا] "الداء والدواء: ٥١١"، ومن الطرائف في هذا الباب أن الشاعر جامع بن مرخية قال مرة:

سألت سعيد بن المسيب مفتي الـ ... مدينة: هل في حب دهماء من وزر؟

فقال سعيد بن المسيب: إنما ... تلام على ما تستطيع من الأمر

فبلغ ذلك سعيد فقال [كذب والله ما سألني ولا أفتيته بما قال، ولو سألني ما كنت أجيب إلا به!]، وقد عشق عبيد الله بن عبد الله بن مسعود - أحد فقهاء الإسلام السبعة - حتى اشتهر عشقه فلما كثر عليه اللوم هجر محبوبته ثم إنه ندم بعد ذلك فقال:

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم ... ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنم عليك الكاشحون وقبلهم ... عليك الهوى قد نم لو ينفع الكتم

فأصبحت كالنهدي إذ مات حسرة ... على إثر هند أو كمن شفه السقم

تجنبت إتيان الحبيب تأثما ... ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فذق هجرها قد كنت تزعم أنه ... رشادا ألا يا ربما كذب الزعم

"مصارع العشاق: ١/٢٢١"، وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أنه وقع في سهمه يوم جلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة قال عبد الله: فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون!، وذكر الخرائطي في "اعتلال القلوب" أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه مر بجارية وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمائمي ... متمايسا مثل القضيب الناعم

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة، فقال: من هواك؟ فتلكأت، فأقسم عليها! فقالت:

وأنا التي لعب الهوى بفؤادها ... قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعثها إليه!، [وأتي علي بن أبي طالب بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له: ما قصتك؟ قال: لست بسارق ولكني أصدقك:-

تعلقت في دار الرياحي خودة	يذل لها من حسن منظرها البدر
لها في بنات الروم حسن ومنظر	إذا افتخرت بالحسن صدقها الفخر
فلما فرقت الدار من ومهجة	أتيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار لي ثم صيحوا	هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع علي شعره رق له فقال للمهلب بن رباح - صاحب الدار - : إسمح له بها ! فقال: يا أمير المؤمنين سله من هو؟ فقال: النهاس بن عيينة، فقال: خذها فهي لك؛ ["اعتلال القلوب"، وفي "روضة المحبين"]

[أنا زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد قرأت في طريقها مكة على الحائط :-

أما في عباد الله أو في إمائه	كريم يجلي الهم عن ذاهب العقل
له مقلة أما المآقي فقريحة	وأما الحشا فالنار منه على رجل

فنذرت أن تحتال لقائلها إذا عرفته حتى تجمع بينه وبين ما يحبه، فبينما هي بالمزدلفة إذ سمعت من ينشد البيتين فطلبته فزعم أنه قالهما في ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجوها منه وأن المرأة تعشق منه لها فتشفعت له عندهم فزوجوه، فكانت تعده من أعظم حسناتها وتقول: ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتى والفتاة] وفي "المستجاد من فعل الأجواد" للتنوخي قصة جميلة لعبد الله بن معمر القيسي مشابهة لهذه.

والمقصود أن الإنسان كلما كان أقرب إلى "إنسانيته" في كمالها ونقصها وجهلها وعلمها وقوتها وضعفها وصوابها وخطئها كان إلى الله أحب ومنه أقرب لموافقته مراده منه جل في علاه حين خلق الإنسان على هذه الخلقة وركبه هذا التركيب العجيب ثم أثنى عليه به وفضله على العالمين، وكلما أخل "الإنسان" بشيء من ذلك إما "ملائكياً" أو "تنزيهاً" "شيطانياً" كان عن إنسانيته أبعد وفي عين الله أقبح لمخالفته مراده وموافقته مراد إبليس! (1)

حديث لقيط بن عامر

ومن هنا جاء في بيان فرح الرب بموافقة "الإنسان" إنسانية [يشرف عليكم ربكم فيراكم أزلين مشفقين فيظل يضحك قد علم أن فرجكم قريب، قال لقيط: يا رسول الله لن نعدم من رب يضحك خيراً !!].

[فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته؛ فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى - من تغيير خلقة الإنسان - ويكره ما يحبه - من إنسانيته - علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده وكلما كان أبغض إلى الرب كان أبغض إليه وأبعد عنه علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك، فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك؛ فإن "الولاية" عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه وليست بكثرة صوم ولا صلاة] الداء والدواء: ٢٢٩، ومن هنا في خبر فاجر بني إسرائيل وعابدهم غفر الله للفاجر الذي كان أقرب للإنسانية وعذب العابد الذي أخرج نفسه عنها وتألى على الله والحديث عند أحمد وأبي داود.

(1) قال جل وعلا في الحديث القدسي [إني خلقت عبادي حنفاء كلهم - أي مستطيعين عن غيرهم - وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً] فبين أن كلا الأمرين انحراف "الإنزال" و"التنزيه".

٣- الإنسان والكون.

لقد عاش الإنسان في هذا الكون منذ عصور بعيدة ولا زالت آثاره فيه ضاربة بأطنابها في عمق التاريخ وقد كان منذ أول يوم له على هذه الأرض يعلم أن هذا الكون أكبر بكثير من المحسوسات التي تحيط به وأن له شقاً روحياً لا يقل عظمة واتساعاً عن شقه المادي فعاش الإنسان قرون طوال وهو ينظر إلى الكون بكلتا عينيه - الحسية و الروحية - نظرة البصير خلافاً للماديين والخرافيين "أصحاب العور العقلي" الذين ينظرون إلى الكون بإحدى العينين دون الأخرى، ومن هنا كان تراث الإنسانية عبر تاريخها الطويل على شقين: [ثقافي] و [حضاري] فالثقافة - الدين والأخلاق والفن - تمثل جزء الإنسان الروحي والحضارة - الصناعة - تمثل جزءه المادي وكلما كان المرء أكثر تحقيقاً للأولى كان أعظم إنسانية!.

إن نظرة الإنسان للوجود هي ظل لتصوراته للغيب! فإن مما لا يدركه كثير من الناس أن الحديث عن الأمور الروحية ليس مجرد ترف فكري وإنما هو ضرورة لتكوين الوعي البشري وبناء الأذهان و النفوس التي بها يرى الإنسان الحياة ويفهمها، وغياب هذه الحقائق الغير مادية ينتج اختلال في تكوين وعيه وتقلقل في بناء ذهنه ونفسه واضطراب في فهمه للأشياء والأحداث والأزمان بل واختلال في فهمه لذاته وفقد لكينونته كإنسان، ولذا فإن "الغيب" وما يحتويه من حقائق له موقعه المحوري في تكوين وعي الإنسان الذي يرى به ويفهم واقعه الحسي وفقد هذه الحقائق أو تحريفها والعبث بها يؤدي إلى خلل في تكوين الإنسان وفي فهمه لنفسه وللوجود ولذلك فقد أثر انحراف الغرب في فهمه لقصة خلق البشر في إنشاء تصورهم الخاطئ لمفهوم [الإنسانية] فإن جميع انحرافاتهم في هذا الباب راجعة إلى فكرة "الإنسان الطبيعي - المادي -" أي الإنسان الذي ليس له أصول ربانية - جسد بلا روح - ومن هنا لاقت مقولة داروين رغم سخافتها رواجاً كبيراً في الفكر الغربي الحديث وظنوها "قفزة علمية" سقطوا منها قريباً من «الخرافة» بعيداً عن «العلم»! وقد حاولوا جاهدين تلفيق الأدلة لها من كل وجه فلم يأتوا في ذلك بشيء يعول عليه في ميزان العلم وليس عندهم في ذلك سوى بعض الشقشقات والظنون والتخرصات التي تتلفع بأسلوب العلم ليظنها الجاهل علماً فنحن في زمان يتفنن أهله في صناعة الخرافة وترويجها باسم العلم وقد روى ابن العماد في "شذرات الذهب" عن أبي إسحاق الصابئ [أن صديقاً له دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض - وكان يؤلف كتابه "التاجي" - فسأله عما يعمل؟ فقال: أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها]!.

والمقصود أن البعد المعرفي النهائي للمنظومات الغربية كلها - على اختلافها - هو الإجابة على سؤال واحد «ما هو الإنسان؟» فإذا قلنا أن الإنسان مجرد "مادة" فهي فلسفة مادية حينئذ وينتج عنها منظومات أخلاقية وجمالية وسياسية واقتصادية ... إلخ، فعندما نقول أنه مادة وميكانيكية المادة تسري عليه فلا غرابة في السلاسة أن نقول: لا حق

ولا عدل و الكلمة للأقوى والضعيف عليه أن يذعن - قانون الغاب - ، وفي الأخلاق المنفعة الذاتية هي الميزان وتحقيق أكبر قدر ممكن من اللذات [و] تخفيف أكبر قدر ممكن من الألم (١) ، ومن الجمال إنما ينظر إلى الأمور الحسية أما المعنوية فلا يلتفت إليها ولذلك على سبيل المثال يسمى الحب عندهم "كيمياء عصبية" - أنظر إلى هذا الوصف المادي القبيح لأجمل معنى في الوجود! - بينما نرى العربي يقول في شعر مجنون ليلى [لو رقى به مجنونا لأفاقا] فيغلب المعنى الروحي على المادي .

أما إذا قلنا بأن الإنسان ليس مجرد مادة وحسب و إنما هو مشتمل على "المادة" وشيء آخر هو "الروح" فحينئذ ستختلف جميع المنظومات السياسية و الأخلاقية و الجمالية فعلى سبيل المثال مفهوم مثل "التضحية" من المنظور المادي مفهوم مضمحل تماماً وغير علمي ولا منطقي أما في المنظور الإنساني - الذي تتعالى فيه على أرض المادة ولكنه في ذات الوقت تطل على جوانب أخرى من هذا الكون مغايرة عنها - فالتضحية فيه من أعظم المفاهيم الإنسانية لأنه لا يقدم عليه إلا من بلغ درجة من الرقي و كمال الحس تجعل الأمور المعنوية في عينه أكثر واقعية و أعظم قيمة من الأمور الحسية ! و لذلك جاء في "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب" للألوسي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدني بعض مدح زهير بن أبي سلمى أبيك؟ فأنشده ، فقال : إنه كان يحسن فيكم القول ! فقال : و نحن والله إن كنا لنحسن له العطاء ! فقال عمر [قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم !] ولقي مرة إبنة زهير فقال لها : ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك؟ فقالت : أبلاها الدهر! فقال [و لكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر] ، ومثل ذلك يقال في مفهوم "الحرية" التي يكثر الكلام عنها [redacted] اليوم فإنها عند العرب منسجمة مع منظومته الإنسانية الأخلاقية والثقافية و الأعراب إلى يوم الناس هذا يصفون من كمل خلقه من [redacted] الرجال و النساء بالحرية - وهي عندهم أقرب إلى معنى "الأصالة" و "النبل" - لأن صاحبها لم يقيده شقه المادي عن رقيه الروحي الإنساني بمعنى أن الحرية عندهم هي أن يكون المرء إنساناً حراً لا أن يعيش حياة البهائم ثم يسمي ذلك حرية كما يفعل الماديون ! (٢)

إن ظاهرة "الإنسان" مختلفة عن كل الظواهر "الطبيعية" الأخرى فلها موازينها ومناهج دراستها الخاصة بها و المختلفة عما سواها ودعوى توحيد المناهج البحثية للعلوم المختلفة و التسوية في ذلك بين العلوم المادية و العلوم الإنسانية [هي دعوى فلسفية مادية] ولذلك تجدهم يعتمدون [redacted] [في علم الاجتماع مثلاً] على الإستبيان و الإحصائيات دون غيرها لأنها هي الجزء المادي من هذا العلم [redacted] [أصحابها] الموافقة لنظرتهم المادية للإنسان والكون ، فالماديون عندما يدرسون الإنسان يدرسونه على طريقة "ناشيونال جيوغرافيك" فهم لا يرصدون من "الإنسان" شيئاً [ويغفلون الجوانب الأخرى] وإنما يرصدون الأشياء المادية المشتركة بين البشر وغيرهم - همج الجمجمة مثلاً - فهم ينظرون إلى البشر فلا يرون سوى هياكل عظمية ! ، ومن هنا كثر حديثهم عن "المساواة"

(١) ولا شك أن الشخص المادي قادر على الإيمان بالأخلاق و الأفكار النبيلة بل وبالدين إلا أن إيمانه هذا ليس بنابع من منظومته الفكرية المادية وإنما تجاوز هو لغلبة جانبه الإنساني عليه وهذه نقطة شخصية منه لا من فلسفته المادية ، وكل ما يقال اليوم في العالم الغربي عن "الإنسانية" و "حقوق الإنسان" إنما يدخل في هذا الباب .



② [illegible]" [ففي مثل هذه الدولة تسود الفوضى وتتخذ سبيلها إلى بيوت الأفراد وينتهي الأمر بإنتقال عدواها إلى الحيوانات، فيتعود الأب النزول إلى مستوى أبنائه ويتعود الإبن أن يضع نفسه في مستوى أبيه فلا يخشى أبويه ولا يستحي منهما، ويخاف الأستاذ طلابه ويتملقهم ويحتقر الطلاب أساتذتهم ومعلميهم، ويصبح الكبار والصغار سواسية فيضع الشاب نفسه في مستوى الشيخ ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ولا يتحرج الشيوخ من تقليد الشبان، ومن واجبي ألا أنسى حرية الجنسين الذكور والإناث ومساواة كليهما بالآخر في علاقتهما [illegible] بعضهما ببعض، والحق أن الخيل والحمير لن تعدم وتتخذ سبيلاً للسير مع الناس جنباً إلى جنب والإستمتاع بكل ما للأحرار من حقوق وكرامات، وقصارى القول أن الأشياء جميعها توشك أن تنفجر لكثرة ما أتخمت بالحرية] "قصة الحضارة: ٨/ ٢٧٧".

بين البشر لأن "العدل" الذي هو إعطاء كل ذي حق حقه.

وإذا رصدنا الإنسان بطريقة مادية -علمية كما يسمونها- فسنجد أن التباين بينه بين البشر من ناحية الكفاءة المادية كبير وحينئذ بحسب الفلسفة المادية الداروينية لا مانع من "الإنتقاء" بالتخلص من الضعفاء والإبقاء على الأقوياء، كما تفعل النحل في تنظيم خلاياها وهو ما فعلته النازية المادية في ألمانيا! ، والغرب اليوم يكره النازيين لأنهم سببوا فضيحة لنموذجه المادي إذ النازية هي البلورة الحقيقية للمادية فما: أيمكن أن يكون أكثر كفاءة في تطبيق النموذج المادي من النازيين الذين قرروا القضاء على كل الأطفال المعوقين والمسنين العاجزين لأنهم بحسب تعبيرهم «أفواه تأكل ولا تنتج» - لأن الإنتاج عندهم هو محور الإنتاج المادي - وهذه نظرة مادية صارمة حيث يقومون بحساب ما ينتجه الفرد وما يستهلكه بطريقة رياضية محضة فمن كان إستهلاكه أكبر من إنتاجه إستحق الموت، وقد قتل النازيون أكثر من سبعة وسبعين ألف طفل معوق ومسن عاجز وكتب أحد العلماء الألمان [أن هذا قدم للإقتصاد الوطني النازي ما يقرب من خمسمئة ألف طن من المربى] بمعنى أنها مسألة "علمية"!! ومن هنا نفهم معنى ما قاله الأستاذ أبو قيس محمد رشيد من كون ["الذكاء الإجتهادي" و"الحس اللغوي" و"الحس الأدبي" شيء و"العلوم" الأخرى شيء وليست هي الإنسانية، إذ هي علوم محصلة من خارج النفس البشرية، أما العلوم الإنسانية فهي النفسانية الصافية إذ هي التي ترتقي بالإنسان، ولذلك قد ترى مهندساً أو طبيباً جلف الطبع غليظ القلب لا إنسانية له بينما لا تجد شاعراً أو أديباً كذلك؛ إذ القضية الإنسانية والعقل الإنساني والتركيب النفسي للإنسان أمر مختلف تماماً عن هذه "العلوم"] ففرق بين "التقدم العلمي والصناعي" و"التقدم الإنساني" ولذلك في الدول المادية المتقدمة اليوم نرى نسبة الإنتحار أكبر من غيرها وتزداد هذه النسبة كلما إزدادت هذه الدول تقدماً!.

فالمنظومات الغربية المختلفة المتصارعة تنطلق من نموذج معرفي واحد في نظرتها للإنسان والكون بمنظور مادي محض لا تفرق فيه بين الإنسان والدواب والحشرات إلا بما تسميه عدسة المجهر! ومهما تنوعت صور هذه المنظومات - إشتراكية ورأسمالية وليبرالية ...إلخ - وأخرجوا أفكارهم بخطاب جديد مختلفة إلا أن رؤيتها للإنسان واحدة، والشعارات "الإنسانية" التي ترفع في الغرب على الحقيقة لا وجود لها في نفوس الماديين ولذلك؛ على سبيل المثال تكتب الولايات المتحدة على ورقة الدولار عبارة [نثق بالله] ولكنهم في جميع تعاملاتهم المالية لا يثقون إلا بـ "شركات التأمين" و"آليات السوق" وما شابه ذلك؛ إذ المجتمع هناك لم يؤسس على المعاني الأخلاقية الإنسانية وإنما على المعرفة المادية والنظم المادية، والإنسان في عينهم مجرد مخلوق صانع ذو دماغ مفكر وذو غرائز حيوانية وكفاءة في التعامل مع الجوانب المادية في الطبيعة؛ ولذلك يقولون بأنه كان "حيواناً" كاملاً ثم تطور حتى صار إنساناً ومن هذا المنطلق نشأت الفلسفات الغربية الحديثة كلها فالفكر الغربي الحديث بدأ بإدعاء أن الإنسان كان "حيواناً" ثم إنتهوا بعلومهم ونظمهم المادية إلى تحويله لذلك حقيقة!.

* ولذلك يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري ["الشعر" دائماً أصدق من "التاريخ" ومن "الصحف اليومية" ومن "العلوم المادية" لأن الحقيقة أكبر من الحقائق] .

أما العربي فإنه يقول :-

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لأنه إن خلى من الجوانب الروحية لم يعد إنساناً !، ولو كانت الإنسانية بالكفاءة المادية - التطور الداروني - لكانت الحيوانات والحشرات أكثر "إنسانية" من البشر حيث أنها تؤدي وظيفتها في حتمية بالغة ووظيفية صارمة وكفاءة عالية ونفعية مادية لا يمكن أن تتجاوز حدود البرنامج الموضوع لها فهي لا تضيع وقتاً ولا جهداً خارج إطار حاجاتها المادية ولذلك يقول الأعراب في زماننا [الذيب ما يعرف عبث] فهل هذا يجعله أكثر عظمة وإنسانية من البشر ؟! .

والغرب لم يصل إلى [المنظومة المادية] بسبب التطور العلمي - كما يتوهم البعض - فإن مقولة ماركس [لا إله والحياة مادة] قالها الأعراب في صحرائه قبل ألفي عام [إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر] فالمادية ليست هي النتيجة الحتمية "للعلم" كما يتوهم الجهال، ولذلك فإن الأنبياء عليهم السلام عبر تاريخ البشرية كانوا هم أهل العلم - بمعناه المادي - والفكر والإبتكار والإبداع إذ هم أكمل الناس عقولاً وأحدهم أذهاناً وأقدرهم على فهم أسرار الحياة : فهذا آدم عليه السلام أعظم "مستكشف" في الوجود كما وصفه ربنا جل وعلا بقوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ أي علمه أسماء ما خلق في الأرض من الدواب والهوام والنبات لأنه مستخلف فيها ليعمرها ولذلك قال الزمخشري شارحاً ذلك بأن الله ألهم آدم سر الإهتداء إلى أحوال الأشياء وخصائصها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ثم كان آدم عليه السلام يضع لها من الأسماء ما يوافق حقيقتها وذلك أنه كما قال إبن جني في خصائصه [إن أصل اللغة لابد فيه من "المواضعة" وذلك بأن يضع حكيمان أو ثلاثة لكل واحد من الأشياء سمة - وصف - ولفظاً - إسم -] والمقصود أن الله علمه ما يسمى اليوم بـ "منهج البحث العلمي" ولذلك قال أهل العلم عند هذه الآية أن الله علم آدم أسماء ما كان من الأشياء في زمانه وعلم ذريته من بعده أسماء زمانهم فكل إكتشاف تكتشفه البشرية إلى قيام الساعة راجع إلى تعليم الله لآدم !، وهذا نوح عليه السلام مخترع السفينة وأعظم عالم فيما يسمى اليوم بـ "علم الحيوان" - Zoology - والخرافيين عندما يقفون مع قصته يتخيلون أنه حين أمره الله أن يحمل من كل حيوان في أرضه زوجين إثنين أنه نادى بصوت واحد فصعدت جميع الحيوانات إلى السفينة منقادة بغير قياد ودون أن يكون نوح عليه السلام قد أمضى السنوات الطوال في تتبعها ودراستها ومن ثم إصطيادها وجمعها وتهيئة البيئة المناسبة لها وتصميم السفينة بما يخدم هذا المقصد - حتى أنه عليه السلام كان أول من خدر السباع وذلك حين أدخلها إلى السفينة لكي لا تفترس باقي الحيوانات - ولهذا جاء الخبر أنه عليه السلام بقي يعمل في السفينة مئتي عام حتى ركبها !، وهذا إبراهيم عليه السلام إمام البشرية في مختلف أبواب الحياة كما سبق بيان بعض ذلك - ففي "علم الإجتماع" كان عليه السلام أول من ضيف الضيف فقد جعل لداره أربعة أبواب على الإتجاهات الأربعة حتى لا يفوته المار من أي إتجاه جاء دون أن يضيفه وفي "الطبخ" كان أول من صنع الحنيذ وفي "العلوم

وكان ابنه وميسرة وقلب إلى ميمنة قسم الجيش وأول من والسهم وصنع القوس بالسيف ضرب من أول كان "العسكرية" عليه السلام داود وكان ، البشر تألفه لا ووحشية قبله كانت وقد الخيل ركب من أول عليه السلام إسماعيل [كانت عليه الصلاة والسلام قال "السياسية العلوم" وفي ، خياطاً وإدريس ، نجاراً زكريا وكان ، الدروع صنع من أول بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي] ، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية لم تقتصر معارفه على العلوم الشرعية وحدها بل تكلم في الطب والفلك واللغات والهندسة والطيران وغيرها وله التفاتات العجيبة في "علم النفس" منثورة في كلامه كقوله عن علم الحساب [في الإدمان على معرفة ذلك تعتاد النفس العلم الصحيح والقضايا الصحيحة الصادقة والقياس المستقيم فيكون في ذلك تصحيح للفهم والإدراك وتعود للنفس أن تعلم الحق وتقوله لتستعين به على المعرفة التي هي فوق ذلك] الفتاوى: ٩/ ١٢٨ ، وعبر تاريخ المسلمين كان عامة "المؤرخين" هم رجال الدين وعلماء الشريعة ؛ فهكذا يكون الإنسان المتوازن الذي يرى الكون بكلتا عينيه فإن فصل "رجال الدين" عن "علوم الدنيا" فكرة كنسية في أصلها إعتبرها الماديين والخرافيين على حد سواء ، وعدم قدرة الفكر الغربي الحديث على تجاوزها هو الذي إضطرهم في وقت ما الأوقات إلى الإختيار بين الدين والعلم وهي فكرة قبيحة مبطلة "لكمال الأنبياء الإنساني" الذي لولاه لما كانوا أهلاً للنبوة فإن الله عز وجل لا يضع البذرة إلا في الأرض التي تناسبها كما قال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ ولذلك يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري [إن عداء العلمانيين "للدين" نابع من عدائهم "للإنسان" ؛ لأن الدين يذكرهم بنبلهم الإنساني الذي فقدوه] والعرب تقول [ودت الزانية لو أن النساء كلهن زوان] قال تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم "أناس" يتطهرون ﴾ .

إن اللحظة الفارقة في تاريخ الإنسانية هي حين توقف الإنسان عن ملاحقة طريقه وبدأ يقيم الصلوات له لأنه عندما فقط تجاوز الماديات إلى ما هو أعلى منها فصار إنساناً ، ولذلك فإن الإنسان لا يمكن أن يكون إنساناً إلا بوجود الإله ومن هنا قال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ قال إبن القيم رحمه الله [أركان الكفر أربعة : الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ؛ ومنشأ هذه الأربعة من جهله بربه وجهله بنفسه] ، ومن هنا كان "التوحيد" في المفهوم "الإنساني" يعني أن الله مفارق للمادة منزه عنها أما عند "الماديين" الذين لا يؤمنون بوجود شيء غير المادة فإنهم حتى لو آمنوا بوجود إله فإنه لابد أن يكون إله مادي من شجر أو حجر أو حتى إنسان حل فيه الإله فهذه هي حقيقة الوثنية ، وبسبب هذا الفهم المادي لحقيقة الإله يعبر الغربيين عن تركهم الإيمان بقولهم [مات الله] أما العربي صاحب المفهوم الغير مادي عن الإله فإنه يعبر عن ذلك بقوله [نسينا الله] ، والحقيقة التي لم يدركها الغربي هي أنه إذا مات الله فقد مات الإنسان وإذا نسينا الله فقد نسينا أنفسنا وإنسانيتنا وهو ما يحدث الآن مع الحضارة الغربية في جميع "علومها" التي جردت من إنسانيتها وأبقي على الجزء المادي منها فقط ويصور هذا الجزء على أنه الحقيقة المطلقة ولو صدقوا مع أنفسهم ومع الناس

لعلموا أن هذا الإدعاء هو محض جهل وزور! يقول الدكتور المسيري [العلوم الطبيعية تدرس اليوم معبأة بالمفاهيم الفلسفية المادية - مع دعوى حيادها! - فقولنا مثلاً في "عالم الذرة": إنه عالم فوضى، هذه صياغة فلسفية مادية إلحادية صيغت على هيئة حقيقة علمية، والصحيح أن يقال أننا نحن لا نفهم حركة عالم الذرة بسبب قصور علومنا عنها، وهذه الصياغة أكثر علمية لأنك في الصياغة الأولى تفترض أنك قد درست حركة النواة في الماضي والحاضر والمستقبل فتوصلت لهذه النتيجة فإن شكل حركة النواة قد لا يظهر لنا إلا بعد ملايين سنة فالصياغة التي تتحدث عن حدود العقل أكثر علمية من الصياغة ~~[illegible]~~ الإلحادية الموجودة في العلوم المادية كلها والتي تعرض على أنها صيغة "علمية" و"محايدة"!]. ~~و(العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الانفكاك منه)~~ (1)

(1) [والعقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الانفكاك منه] "قصة الحضارة لديورانت" فلا يوجد علم محايد بمعنى أنه لا يكون متأثراً بثقافة وفلسفات أهله وهذا الإدعاء خرافة أشبه ما تكون بمدينة أفلاطون الفاضلة!



خاتمة ..

[اللهم لا يدركني زمان أو أدرك زمان قوم :

١- لا يتبعون العليم - عجبة في العلم - .

٢- ولا يستحيون من الحليم - عجبة في الأخلاق - .

٣- قلوبهم قلوب الأعاجم - عجبة في الإنسانية - .

وألسنتهم ألسنة العرب - ولكنهم بدلوا ثقافتهم وعقولهم -] رواه أحمد .

